

البعد الاجتماعي للنهضة العربية
غابة الحق "أنموذجاً"

**The Social Dimension of the Arabic
Renaissance in the Forest of the Right**

م.د. ماهر حميد عبد الزياي

جامعة الكوفة – كلية الآداب – قسم اللغة الإنجليزية

maherhamed1000@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/07/30	تاريخ القبول: 2026/07/27	تاريخ الإرسال: 2026/02/18
-------------------------	--------------------------	---------------------------

Abstract:

The Arab Renaissance witnessed major political, social, and cultural transformations, during which multiple urban movements and currents emerged. These movements, however, differed in their visions and orientations according to the concept of urban modernity advocated by the proponents of Enlightenment thought, who soon assumed the responsibility of disseminating and defending their Enlightenment ideas. Narrative discourse played a significant role in the literature of the Arab Renaissance, as the primary cultural arena through which the urban consciousness of Renaissance pioneers opened up to the world was the translation of well-known creative works of foreign literatures and the circulation of narrative texts among readers.

Undoubtedly, the rational imagination of Renaissance translators, together with the historical context to which they were connected, prompted them to avoid complex and problematic narrative zones and instead to select narrative spaces associated with suspense and adventure. Accordingly, one of the most important roles played by the novel during the Renaissance—particularly in relation to Enlightenment thought—was giving voice to

silenced radical ideas embraced by the avant-garde of the period. These ideas reflected both a rupture with the persistent foundations of a legacy of backwardness and an aspiration toward the promises of a coming era grounded in the requirements of urban progress sought by free thought.

In fulfilling this role, the novel had to learn how to maneuver around the forms of repression characteristic of its age, drawing on past creative experience to employ allegorical representations and to navigate narrative indirection and metaphorical displacement. Moreover, the Renaissance novel benefited from its own literary heritage as a tradition distinguished by what may be described as the rhetoric of the oppressed. It also drew on the achievements of European narrative forms, particularly allegorical fiction and symbolic narrative, adopting an Aesopian mode of language capable of articulating suppressed discourse in political, social, intellectual, and religious spheres.

Allegorical narrative thus exerted a profound influence on the fiction of Francis Fathallah Marrash, especially in his novel *Ghabat al-Haqq*, which constitutes the focus of this study, as well as on the works of Farah Antun, Ahmad Faris al-Shidyaq, and other pioneers of the Arab Renaissance. These writers found in the novel an effective medium for expression; some turned to utopian writing, while others produced narratives infused with philosophical spirit—what may be termed philosophical literature—whose impact is clearly evident in representing the era and its social problems.

Keywords: Arab Renaissance; *Ghabat al-Haqq*; Allegorical Narrative; Enlightenment Thought; Age of Enlightenment

ملخص البحث

شهد عصر النهضة العربية تحولات سياسية واجتماعية وثقافية كبيرة، إذ ظهرت فيه حركات وتيارات مدنيّة متعددة، ولكنها كانت مختلفة في الرؤى والتوجهات على وفق الرؤية المدنيّة التي نادى بها أصحاب الفكر التنويري الذي سرعان ما أخذ أصحابه على عاتقهم نشر

أفكارهم التنويرية والدفاع عنها. إذ مثل السرد فاعلية كبيرة في أدب عصر النهضة العربية، إذ كان المجلى الثقافي الأول لإنفتاح الوعي المدني لرواد عصر النهضة على العالم هو ترجمة المعروف من إبداعات الآخر في الآداب الأجنبية، وإتاحة الأعمال القصصية أمام القارئ، ولا شك في أن الخيال المتعلق لمترجم النهضة إلى جانب السياق التاريخي الذي أرتبط به دفعه إلى البعد عن المناطق الروائية الشائكة وتعويضها باختيار المناطق الروائية التي تقترن بالتشويق في دائرة المغامرات، ولهذا فأن واحداً من أهم الأدوار التي لعبتها الرواية في عصر النهضة من حيث علاقتها بالتنوير في ذلك العصر، إنطاق المسكوت عنه من الأفكار الجذرية التي انطوت عليها طليعة العصر، سواء في انقطاع هذه الطليعة عن الثوابت الباقية من ميراث التخلف، أم تطلعها إلى وعود الزمن القادم بلوازم التقدم المدني الذي يسعى إليه الفكر الحر.

وقد كان على الرواية في أدائها هذا الدور أن تتعلم مراوغة القمع الخاص بعصرها، وأن تكتسب من خبرة الماضي الإبداعي مخاتلة التمثيلات الكنائية، ومداورة التوريات السردية. فضلاً عن ذلك فقد أفادت رواية النهضة من خبرات تراثها الأدبي، من حيث هو تراث متميز بما أنجزه من بلاغة المقومعين، وأفادت أيضاً من إنجازات القص الأوربي الذي نقلته عنه تقنيات الرواية الأليجورية، أو رواية التمثيل الكنائي ذات اللغة الأيسوبية التي تنطق الخطاب المقموع في المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية أو الدينية وغيرها.

فكان لفاعلية السرد الأليجوري أثره الكبير في أدب فرنسيس فتح الله المارش الروائي، ولاسيما في روايته (غابة الحق) مدار البحث، وفي أدب فرح أنطون، وأحمد فارس الشدياق، وغيرهم من رواد النهضة العربية الذين وجدوا في الكتابة الروائية ضالهم، وبعضهم عمد إلى اليوتوبيا، فضلاً عن السرد المشبع بروح الفلسفة أو ما يمكن تسميته بالأدب الفلسفي أثره الواضح في تمثيل العصر ومشكلاته الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية : عصر النهضة، غابة الحق، السرد الأليجوري، الفكر التنويري، عصر الأنوار.

. توطئة:

شكل عصر النهضة العربية مرحلة تاريخية مهمة " إذ بدأ الفكر فيه يأخذ دوره في سياق الحركة الاجتماعية. منذ بداية القرن التاسع عشر" (1) ؛ لذلك عُدَّ نقطة التحول الكبرى في العالم العربي، بأبعاده الاجتماعية والثقافية والحضارية القائمة على وعي مديني(*)، وذلك نظراً لدوره الكبير والحيوي في تشكيل الوعي المديني عند مفكري التنوير ورواد النهضة، الذين تبلورت لديهم طلائع الوعي بالمدنية عبر مشروعهم النهضوي، الذي يرمي إلى إصلاح أحوال الشعوب العربية والنهوض بها عبر الدعوة إلى المدنية " التي تقود الإنسان إلى كمال أوضاعه الطبيعية والخلقية" (2)، فضلاً عن كل ما تنطوي عليه هذه المدنية من العمل على أساس من الحرية والعدالة الاجتماعية التي تتطلع إليها الشعوب الرافضة للاستبداد والعبودية، وحاملة بالحياة المدنية.

- تمثيلات البعد الاجتماعي في أدب فرنسيس المراس الروائي :

نقصد بمفهوم التمثيلات التصورات الإنسانية حول الواقع، وسواء كانت واقعية أم متخيلة، ولكن على وفق المعرفة الأدبية الممكنة، كونها تشكل مجموعة من التصورات الذهنية التي يكونها المتخيل الثقافي عن واقع الحياة المرئي (الواقعي)، وغير المرئي (التصوري / الخيالي)، إلا أنها في النهاية تشكل مماثلة مؤثرة في الذات المتلقية عبر تجسيدها للتصورات الرمزية وتمثلها في النص السردي تبعاً لتعدد التجارب الإنسانية وما يرافقها من أحداث وشخصيات مجردة ذات أفكار متصارعة واتجاهات متناظرة في عالم خيالي (3).

ولهذا فإن التمثيلات هي العلامات الدالة على الشيء المذكور بالفاظ معينة في نص مفتوح ؛ لأن العلامة بحد ذاتها لا تحيل مباشرة على المرجع، وإنما على الأفكار المتصلة به،

فضلاً عن أن التمثيل يقوم بوظيفة التعبير عبر التوالد السردى المستمر، أو ينتج كل تعبير فكرة عما يقوم بتمثيله سردياً. ولا يتحدد التمثيل بالنص السردى فقط، فهو يُعيد تشكيل العوالم والمرجعيات الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتتناظر بذلك العوالم النصية المتخيلة بالعوالم المرجعية فتحدد وظيفة التمثيل في النصوص الشعرية والنثرية على حدٍ سواء(4).

بعد هذا فقد أصبحت التمثيلات الروائية أشبه بالواقع المفترض على الكاتب الروائى، كونها تصورات ماثلة في مخيلته الثقافية، لذا من الطبيعى أن يصبح التمثيل السردى ضرورة ملحة وحتمية ضمن إطار البنية السردية للرواية، فأخذ فرنسيس فتح الله المراه بتمثل تطلعاته المدنية وصورها في نسيج روايته "غابة الحق"، إلى جانب ما يشكله في ذهنه من تصورات خيالية ذات أبعاد جمالية تعكس طبيعة الحياة والواقع الاجتماعى بأبعاده كلها.

لذا ركز فرنسيس المراه في روايته ذات الأفكار الإصلاحية على القيم الاجتماعية جميعها بما تنطوي عليه من أبعاد أخلاقية ودينية وثقافية التي من شأنها أن تُعلي من شأن الإنسان وترفع من منزلته بناءً على العقل القادر على اكتساب العلم الذي يوصل الإنسان إلى الحرية ؛ لأن "الإنسان بدون الاكتساب والعلم فهو حيوان بهيمي ووحش ضار... وربما كان أفظع حالة من كل البهائم والوحوش الضارية... إن الاكتساب العقلي ينقل الإنسان من الحالة الوحشية إلى الحالة الإنسانية هكذا العلم ينقله من حالة الغفلة إلى حالة النباهة ومن قيود الجهل إلى حرية العقل"(5)، هذا ما أراده المراه، وعمل من أجل تثبيت أسسه، ونشر مبادئه التنويرية وإشاعتها في المجتمعات العربية.

ولكن يكشف لنا عصر النهضة عن نزعات مدنية (حداثة) متعددة أنجزتها جهود فردية أو جماعية مختلفة لرواد النهضة، إلا إنها لم تستطع نتيجة للمعوقات التي واجهتها أن تحدث التغيير المدنى في بنية المجتمعات العربية الذي كان يتطلع إليه دعاة التنوير، المجتمعات التي وجدت نفسها في ليلة وضحاها تعيش في مناخ تنويرى تقاطعت فيه كل

الاجتهادات الفكرية والتصورات الخالية، المشتركة في وحدة الهدف دون وحدة الرؤية التنويرية، تمثل هذا في اختلاف المواقف والتصورات الخيالية للتنوير الذي اجتمعت تمثلاته الحداثية في آراء غير متجانسة لحشد(6) من دعاة التنوير الذين لم يتمكنوا على الرغم من كل ما قدموه من أفكار أن يشكلوا موقفاً موحداً تجاه قضيتهم الموحدة (التنوير العربي)، وإنما قدموا رؤى متشظية لحالة مدنية متحولة، أو لظاهرة حداثية متنورة متعددة الملامح التنويرية، ومختلفة الاتجاهات الثقافية، كل بحسب ميوله الذاتية، ومنطلقاته وتوجهاته الإيديولوجية.

أراد المراس لأفكاره الخيالية ذات البعد الاجتماعي المؤسس على وعيه المدني المؤدلج في روايته أن تلتقي في نهاية الأمر مع إحدى الرؤى للعالم، والموجودة في الواقع الفكري(7) الذي تتقاطع رؤيته التراجع المدني، والانحطاط الثقافي في الواقع الاجتماعي والتخلف الحقيقي الذي يعيشه المجتمع العربي من جهة، وتمثلات رؤى الاستنارة للعالم الآخر المتقدم بوعيه ومدنيته من جهة أخرى، التي سرعان ما بدأت طلائعها المدنية تتمثل في أفكار دعاة التنوير العربي عبر كتاباتهم الأدبية المختلفة، ومن ضمنهم المراس الذي عمل على خلق عالم مواز لعالمه الواقعي، فقدم أفكاره التنويرية في روايته عبر عوالم تخيلية بالأساس من أجل العيش بحرية، والتخلص من الاستبداد والعبودية.

تطلع فرنسيس فتح الله المراس إلى حياة جديدة مبنية على أسس مدنية حضارية كالحرية والعدالة والمساواة والتمدن، في مجتمع جديد عبر دعوته إلى ترسيخ مبادئ الحكم العادل في المجتمع وتشكيل نظام اجتماعي من خلال تحكيم العقل وانتشار المساواة والمحبة والسلام بين الناس، ووضع شرائع وقوانين جديدة للحكم، وأن يكون الجميع متساوين أما القانون من غير أي تمييز مقيت سواء كان جنسياً أم عرقياً أم دينياً، وأن تكون القوانين مناسبة للمجتمع. وأن يكون الخير هدف الحكم. هذا فضلاً عن شروط أخرى كتنمية العقل وتهذيب العادات والأخلاق الاجتماعية وتنظيف المدن وإتقان بنائها(8)، وهذا ما حاول تأكيده بقوله على لسان الملكة : " إن إشارتي إليك أيها الملك الجليل بوضع شرائع وقوانين جديدة على أولئك

القوم...يسلكون بموجها"(9) وهنا تمكن المراه عبر خطابه السردى المآآل من إىصال صوته على لسان الملكة للسلطة داعياً إياها لتغيير نظام الحكم، أى أن تضع السلطة دستوراً جدياً للبلاد العربية يواكب روح العصر ويلبى تطالعآأ أبناء المجتمع العربى الذى يرى ببارق الاستنارة المآآة والتنوير العربى تلوح بالأفق.

بالمقابل نجده يقدم صفآأ الحاكم العادل ويطلب منه على لسان الفيلسوف أن يتحلى بها؛ لأنها أساس الحكم العادل ودليل على بقاءه يقول: " حالة الشخص الذى يتعاطى السياسة، فهو يجب أن يكون رجلاً من أصل كريم ... ذا تربية حسنة وصالآة،... وينبغى أن يكون فطناً ونبهاً...وآم أن يكون ذا أناة لأن الأناة هى الآلة الوحيدة لاستقصاء الحقائق... آم ينبغى أن لا يكون سكيراً، وأن يكون شجاعاً، وغير ممانآ..."(10).

آآذ الكاتب من شخصية الفيلسوف قناعاً يتوارى خلفه لآمير نقده الاجتماعى لرأس السلطة، مع نشره لأفكاره التنويرية الذى سعى من آلالها إلى التركيز على ترسيخ المبادئ الاجتماعية لأفكار عصر التنوير بأبعادها المتعددة، وأهدافها المختلفة وتشريعها كقوانين فى البلدان العربية والعمل بموجها.

ولكن التناقض بين الإرادة الذاتية ومطلبها، ورغبة المعاصرة ومطلبها فى الآن نفسه، أساس الأزمات التاريخية والمدنية والثقافية العميقة التى نعيشها مع بقية المجتمعات التى آجاوزت حضاراتها، وهذا ما يعكس طبيعة النمط الثقافى للمجتمعات فى حقبة زمنية محددة، ولدى جماعة معينة من آهة، ودرجة الاستقرار الاجتماعى واحآمالآ تطوره عبر الوعى المدينى(11).

وهنا أراد المراه أن يثبت للسلطة على لسان الفيلسوف بأن الحكم العادل والدولة المعتدلة بقوانينها المنبثقة من دستورها ما هى إلا " ظاهرة من ظواهر الاجتماع الطبيعى. تولدت حسب قانون طبيعى، حكمها إذن مندرآ تحت حكم المجتمع العام"(12)؛ لأن الدولة المستبآة بقوانينها، والرافضة لمبادئ المدنية من آهة نظر المراه تكون دولة فاسآة ومناقضة للمجتمع

وما يتطلع إليه من العيش بحرية وكرامة، فتكون مبنية على "العنف واستعباد الناس، فليست سوى مؤامرة ضد الإنسانية" (13).

فليس ثمة من طريق آخر أمام الحاكم يحافظ به على حكمه ودوام سلطانه غير هذه المبادئ المدنية ذات الأبعاد الاجتماعية المتعددة التي قدمها للسلطة على لسان الفيلسوف، فهو يؤكد على حاجة "سلطان الحكومة إلى ما يُعقل جماعه، ما يقيده ويفرض عليه احترام الحريات" (14)، مؤكداً على أن يكون النظر في هذه الدولة "إلى الصالح العام، وتكون الملاحظة السياسية عاصمة له" (15).

ويكشف جابر عصفور في كتابه الرواية والاستنارة عن المغزى التمثيلي للرواية وكيف أنه يدور على ثلاثة محاور أو أشكال تمثيلية قائمة على فاعلية الخيال الأدبي لدى المراس، عبر التوتر السردي نتيجة للصراع بين مملكة التمدن والحرية من جهة، ومملكة الروح من جهة ثانية هذا بالنسبة للشكل الأول، يقابله الشكل الثاني بين مملكة التمدن والحرية ومملكة التوحش والعبودية. وأما بالنسبة للشكل الثالث فتدور أحداثه داخل مملكة التمدن نفسها، ما بين الفيلسوف الذي تتمثل فيه عقلية السلطة المدنية وتطلعاتها ذات المرجعيات التنويرية الخالصة، وقائد جيوش الدولة الذي يمثل رمز السلطة العسكرية بأجهزتها القمعية المستبدة (16).

يؤكد المراس على العقل والحرية، كونهما يشكلان "حجر الزاوية في التمدن" (17) الذي يعني في اللغة الدخول في المدنية، وأما اصطلاحاً فهو ناموس يرشد الإنسان إلى تجويد أحواله الطبيعية والأدبية، ويبني على خمس دعائم أساسية تمثل مرجعه التنويري، ومنها تهذيب السياسة، وثقيف العقل، تحسين العادات والأخلاق، وإصلاح المدينة، وأخرها المحبة (18)، وبهذا فقد ربط المراس بين ما يمكن أن أسميها عناصر التنوير العقل والحرية والتمدن، التي لا يمكن أن يتحقق التنوير إلا بوجودها. فلا يمكن بلوغ أحدها وتحقيقه إلا بتآزر العناصر الأخرى مع بعضها التي تكوّن باجتماعها أساس التنوير وقاعدته النهضوية، فكانت

الحرية تمثل عنده الوجه الآخر للتمدّن والاستنارة ومادتهما الأساسية، بالمقابل كان التمدن يعني له الحرية، بينما يعد العقل قاعدتهما الروحية.

وهنا يقدم المراسش دستوراً مدنياً جديداً للإنسانية مصدره التمدن والمدنية، ناشراً من خلاله أفكاره التنويرية، ومبشراً بحقوق الإنسان العالمية، ومرسحاً لمبادئها على وفق وعيه المدني، داعياً في الوقت نفسه السلطة إلى تطبيقه في البلاد العربية والعمل بموجبه، ليكون مصدراً للاستنارة والتنوير.

ومهما يكن فإن اهتمام المراسش بالعقل لم يكن اعتباراً، وإنما لإيمانه المطلق بقدرة العقل المتحرر على اكتساب "العلم الذي من شأنه أن يهذب الإنسان ويحسن تربيته ويصلح فساد فطرته ويجمل ويزين أعماله ويكبر مقداره ويعظم أفكاره ويجعله إنساناً لا بهيمة وبشراً لا وحشاً ويفتح بصره وبصيرته ليرى الحقائق ويميز الطرائق" (19) وهنا يتجلى البعد الثقافي الملازم للبعد الاجتماعي بأبهى صورته المدنية؛ لأن غاية التمدن عند المراسش هي "نزع كل سمة بهيمية عن الإنسان" (20)، فضلاً عن أن التحرر من مملكة التوحش والعبودية والعيش في مملكة التمدن والحرية يعني "الانتقال من البداوة إلى الحضارة؛ [لأن هذا الانتقال] ينطوي على انتقال أخلاقي - قيمي، وسيلته الحب، يحرر الإنسان من عواطف وعادات سلبية، ويعلمه أخرى مهذبة راقية... كأن الحب رحلة تجرد الروح من شوائبها وتطلقها خفيفة نقية" (21) وهذا ما أكدّه المراسش من أن التمدن لا يتفق مع "ملكة السكر، ولا مع عادة النهم، ولا مع ملكة الفجور، ولا مع خلق الكذب، ولا مع عادة النميّة، ولا مع خلق الغضب، ولا مع الجبن، فجميع هذه العادات والأخلاق الشخصية وأشباهها مما لم يذكر لا يمكن اتفاقها مع قوانين التمدن ولذلك يجب استئصالها من الناس وتربيتهم على أضدادها" (22).

وهنا تتجلى أفكار التنوير بشكل واضح لتكون أساساً للبعد الاجتماعي الذي يدعو المراسش إلى تمثيله عبر استئصاله لجميع العادات والأخلاق المتأنتية من مملكة التوحش والعبودية والتي لا تتفق مع قوانين التنوير في مملكة التمدن والحرية. فإن تخلص الإنسان من

هذه العادات والأخلاق يؤدي إلى تثقيف عقله " فبدون تثقيف العقل إذن لا يعد الإنسان إلا مع الهائم التي لا عقل لها ولا يمكن أن يدعى متمدناً قط"(23). وهذا لا يعني أننا أمام دعوة إلى تثقيف العقل وتحريره فقط، بل أمام تصور مديني يواكب روح العصر وما جاء به التنوير، ليس من جهة الدعوة لتبني التكنولوجيا أو المنطق التقني(العلوم الطبيعية)، بل من ناحية الدعوة إلى تبني النظام السياسي الحديث، المؤسس على دعائم الأمم والشعوب، أي النظام المدني الدستوري(24)، لكي يأخذ العقل المديني دوره الحقيقي والجهري في إدارة النظام الاجتماعي الجديد والنهوض بالأمّة والتقدم بها نحو التمدن والمدنية.

ولهذا فهو يؤكد على أهمية العقل الذي يصبح المجتمع في ظل تحرره وسيادته حر العقل، الأمر الذي دفع المراسل للعمل على نقد إيديولوجيا السلطة المستبدة والسائدة وتفكيكها من الداخل العربي، ليفتح آفاقاً رحبة في فضاء التنوير ليؤسس لبناء فكر تنويري عربي قائم على وعي مديني متحرر، عبر ترسيخه للقيم الاجتماعية التنويرية القادرة على إنتاج نظم اجتماعية جديدة تلي تطلعات أجيال المستقبل وما تطمح إليه من سبل العيش والحياة الكريمة.

وبعد هذا يركز على أحد أهم أركان البعد الاجتماعي ألا هو الثقافة التي أساسها العلم ومصدرها الوعي، مؤكداً على أن العلم والثقافة يؤديان دوراً مهماً وحيوياً في الحفاظ على القيم الاجتماعية والمعايير الثقافية المؤسسة لبينة المجتمع، فضلاً عن أنها تفسح المجال للابتكار وإجراء التغيير اللازم في النظام الاجتماعي وتجديد قوانينه لتصبح أعلى مدنية من سابقتها : نتيجة لتقدم العلم والإعلاء من شأنه في مملكة التمدن "فبالإجمال نقول إن العلم هو الفاعل الأعظم لتثقيف العقل والمرؤّض الأكبر لجماح الطبائع، والسبب الأهم لتشييد التمدن العمار إذ يرفع أفكار الإنسان إلى الحقائق السامية فلا تعود دائرة مستحقرات الأشياء... ثم تنمو به الصفات الداعية إلى جلاله العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والأتضاع والدعة والإحسان والوفاء والأمنية..."(25)، وهنا يتجلى دور العلم والثقافة من خلال رؤية الكاتب كون الثقافة تعمل على وفق مجموعة من القواعد والقيم الاجتماعية المتفق عليها، وعادة ما تكون

هذه القيم واضحة ومحددة المعالم في الثقافات الإنسانية الراسخة عبر الوعي الثقافي في مملكة التمدن، فمن "قواعدها العقل والعلم والحرية، [مقابل] مملكة التوحش وركائزها الجهل والجشع والاسترقاق" (26) // العبودية التي تمثلت في شخصيتي ياقوت ومرجان، ولاسيما بعد أن عرض تجربتهما في ظل الرق والعبودية برؤية نقدية لظاهرة الاستعباد؛ لأن الاستعباد "مكروه عقلاً وطبعاً، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما سواها... فمن أين أُبيح لك شراء الإنسان وعذابه وقهره... أما ترى الحيوان القوي كيف يستعبد الضعيف" (27)، وهنا إشارة واضحة لنبد العبودية، عبر التمثيل الكنائي ليدل دلالة قاطعة على الطبيعة الحيوانية التي تتصف بها السلطة؛ نتيجة لاستعبادها المجتمع، فهو يؤكد على عدم الفرق بين الحيوان ومن يمارس الرق والعبودية على أبناء جنسه.

سارداً بعد ذلك ما جرى للعبدین على لسان الزنجي في حضرة ملك الحرية وزوجه ملكة الحكمة ومن كان شاهداً على المحاكمة التي عقدت جلستها لمحاكمة قواد مملكة التوحش والعبودية، ليكشف عن طبيعة التحول الذي طرأ على بيئة التركيب الاجتماعي، ولاسيما في المجتمعات المدنية التي تسعى بتطلعاتها إلى تأسيس ملامحها المدنية، فضلاً عن طبيعة العلاقات الشخصية، التي نقلها من مملكة التوحش والعبودية إلى مملكة التمدن والحرية (28).

ومن المفاهيم التي يمكن أن نجعلها من ضمن الروافد التي عملت على تعضيد أوأصر البعد الاجتماعي لفكر النهضة وترسيخ أسسه التنويرية، هي "المفاهيم الليبرالية... مما أوجد حركة تفاعل فكري أسست لمرحلة تالية" (29) أصبحت فيما بعد من أهم ما يدعو إليه فرنسيس المارش، ولاسيما ما يتعلق بالجانب الآخر من تصورات السياسية التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من تصورات الاجتماعية والثقافية، وخاصة ما يتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة "والسبيل إلى ذلك وصل التمدن بالدين، وصل الروح بالبدن، وتخليص الدين من التعصب الذي تلصقه به الممارسات البشرية التي تنغل على نفسها" (30)؛ لأن مسألة العلاقة بين الدين والدولة تُعد هي القضية الجوهرية في فكر عصر النهضة؛ لأنها كانت تعني الإقرار بإسقاط

الإيديولوجيا السائدة، وفتح الآفاق الواسعة أمام أفكار التنوير، لتتشكل إيديولوجيات جديدة أساسها المدنية.

بعد ذلك يكشف فرنسيس المارش عن تعدد الثقافات في مملكة التمدن والحرية التي يمكن أن نسميها هنا بالثقافات الفرعية التي تُتيح للناس الحرية للتعبير عن آرائهم وتطلعاتهم ومعتقداتهم، وتمنحهم الفرصة للسعي إلى تحقيقها، وهذا ما فعله الملك بعد أن سمح للملكة الحكمة بأن تقدم له المشورة وتعبر عن رؤيتها السياسية الخاصة في تدبير أمور الرعية، والسماح أيضاً للفيلسوف بأن يشرح معنى التمدن مبيناً دعائمه، فضلاً عن سماحه لوزير المحبة والسلام، وقائد الجيش، والزنجي الذي أتم روايته وغيرهم بالتعبير عن آرائهم(31)، وهنا يتجلى البعد الاجتماعي بحكم أن النص الروائي يبنى على خصوصيات ذات أبعاد معرفية وفنية، وهي في جوهرها الحقيقي تمثلات لنموذج العلاقات والقيم الاجتماعية المتبادلة بين الفكر والواقع الاجتماعي، ولكن على وفق الأبعاد الإيديولوجية؛ لأن الكاتب لا يمكن له أن يكتب أدبه بعيداً عن واقعه وما تحيط به من ظروف اجتماعية أولاً، وأنه أثناء صياغته لنصه الأدبي، ولاسيما الروائي يحاول التوفيق بين أفكاره والواقع الاجتماعي الذي يريد أن يعبر عنه مصوراً أبعاده كلها ثانياً وهنا تظهر المقابلة المباشرة بين العمل الروائي والواقع الاجتماعي. فأي عمل أدبي لا يمكن لنا أن نفهمه فهماً كاملاً، ومن ثم تأويله تأويلاً دقيقاً ما لم نربطه بسياقه الفكري والاجتماعي(32)؛ لأن الأدب هو تمثيل الواقع وتمثله، فإنه لا يمكن لنا أن نصل إلى العلاقة الكامنة بين الأدب والمجتمع، إلا عن طريقين هما: التمثيل الثقافي (الأدب الواقعي)، بيان علاقته بالتجربة الإنسانية بعد الكشف عنها، متمثلاً ذلك بالتمثيلات السردية التي تكشف عن التطورات الفكرية للمجتمع في ظل التطور الحاصل في بنيته وما تعكسه على حياته الواقعية. وأما الآخر: فهو التمثيل الرمزي (الإيلجوري) الذي هو جزء لا يتجزأ من التمثيل التخيلي والتخيلي (الأدب الخيالي)(33) التصوري أو الصوري، ضمن الإطار العام في البنية السردية للنص الروائي، بوصفها الوعاء الجامع لجميع التصورات المرئية وغير المرئية التي تتبادر إلى ذهن الكاتب، فضلاً عما يستدعيه من موارثه الثقافي عبر الذاكرة أو التذكر.

بمعنى أن الكاتب حين يرسم واقعاً اجتماعياً لا ينجح في رسمه، إلا إذا امتلك الوعي الأدبي المؤدلج الملائم لواقعه، بعد أن يتعرف على المستويات الأدبية المحيطة للواقع الاجتماعي الذي يريد رسمه وتقديمه بطرائق وأساليب واقعية حيناً وتخييلية أو تخيلة حيناً آخر.

من الأبعاد الاجتماعية الأخرى التي نادى بها فرنسيس المراهق هي الحرية كونها تمثل مطلباً إنسانياً روحياً وفطرياً، قبل أن تكون مطلباً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً ؛ ولهذا عدت "الحرية وجهاً ضدياً للقمع، ومقاوماً له، كما يبدو القمع قامعاً للإنسان الفرد، في سعيه لتحقيق إنسانيته عبر الحرية، بوصفها كشفاً أصيلاً عن ذلك الجوهر الثري للإنسان، ومن ثم فهي ممارسة أنطولوجية ملموسة ومتعينة، بالحرية ليست ظاهرة، أو واقعة، أو حالة، بل هي فعل"(34) إنساني فطري بطبيعته التكوينية الأولى.

ولكن بما أن الحرية قد عدت بوصفها فعلاً إنسانياً فطرياً، لم تنشأ من فراغ، ولا يمكن فصلها عن الواقع بتجلياته السياسية والثقافية، ومحيطه الاجتماعي؛ وهذا ما أكده شكري عياد بأن الحرية كمفهوم مطلق – لا وجود لها إلا في الذهن وهذا ما يؤكد طبيعتها الفطرية، أما في الواقع فلا توجد إلا حريات نسبية ؛ لأن نقيضها الضرورة (35)، فالحرية على حد وصف المراهق هي درعٌ يقي الإنسان من آفات الاستعباد" متدعة بدروع الحرية الإنسانية والخلوص المحض"(36) وهذا ما عبر عنه المراهق على لسان العبد مرجان الذي ألتقى بأخيه ياقوت بعد فراق طويل دام لسنين، بعد أن قتلت أمهما واختطفهما تجار العبيد، وتم بيع كل واحد منهما في مكان، إلا أن القدر قد جمعهما مرة أخرى على هامش الأيام ليتسنى لهما التعرف على بعضهما "وبينما كنت ذات يوم أتمشى على الكبري وقت الراحة وإذا عبد نظيري يقول لي :

نهارك سعيد....

- نهارك سعيد ومبارك.

وبعد أن تأملته بإمعان شعرت بشرارة كهربائية طارت من دمي وسرت في جميع
مفاصلي فسألته : ما الاسم؟

مرجان.

فأزددت حنواً.

وكيف كان مجيئك من بلادنا؟

بقوة الاختطاف.

وهل خطفوك وحدك أم خطفوا غيرك معك؟

خطفوا معي أخي أيضاً، لأنني كنت أتمشى معه في البرية وإذا جماعة من المصريين
دنوا منا وخطفونا وقتلوا والدتنا لأنها رغبت إنقاذنا.

فما عاد لي شك أن هذا العبد هو أخي ذاته...

فسألته : ما اسم أخيك؟

ياقوت وهو أكبر مني.

فقبضت على يده وقلت له : اتبعني لأريك أخاك . فأخذته إلى حجرتي على انفراد
وقلت له : أنا هو أخوك ياقوت" (37)، ثم بدأ يقص عليه كل ما حدث معه، بعدها طلب منه أن
يروى له كل ما جرى له وكيف وصل إلى الأستانة، فيخبره مرجان بأن رجلاً من المصريين قد
باعه إلى رجل من الاسكندرية ولما بلغ أشده باعه إلى رجل من الأتراك، ثم باعه إلى آخر وهو
عنده منذ سبع سنين (38).

بعد ذلك سأله عن معاملته له، فأخبره مرجان بأنها معاملة حسنة، إلا أنه يتطلع برغبة كبيرة إلى الانعتاق والتحرر من الاسترقاق والعبودية ونيل الحرية " ولكن مع ذلك أرغب جداً إعتاقي؛ لأن الفكر وحده بوجودي عبداً أو بكوني أنا وملك يدي لسيدي، وبأن حياتي وموتي بين شفتيه أو يديه ومتى شاء باعني ومتى شاء اشتراني، بحيث لا يوجد لي أدنى حرية معتوقة ولا حركة مطلوقة، يجعلني مائلاً كل الميل إلى الحرية والانعتاق، ولو صرت خادماً بأجرة حياتي فقط عند الرعا.

إذن تشتهي الانعتاق ؟

- نعم بكل قلبي .

فلماذا لا تطلب من سيدك ورقة إعتاقك ؟

فأذهب وخذ منه ورقة الإعتاق...

فذهب من عندي وبعد ثلاثة أيام أتاني ومعه ورقة الإعتاق فأدخلته المدرسة، وبعد مرور خمس سنين خرجنا منها ودخلنا في خدمة دولة التمدن..."(39) وهنا تظهر الحرية بوصفها أحد روافد البعد الاجتماعي المدني، ولاسيما بعد أن " كانت كلمة حرية لمدة طويلة شعاراً فقط يرفع في النضال السياسي والفكري"(40)، فضلاً عن الدعوة الواضحة والصريحة إلى رفض كل أشكال العبودية وما تتميز به كالظلم والجور والقهر الإنساني الذي يقيد الإنسان ويحد من حريته الشخصية ويقتل طموحه وتطلعاته.

ولكن مع هذا سيبقى الجدل حياً، والصراع قائماً ما بين الحرية والتمدن، والتوحش والعبودية ؛ لأن " الوجود الإنساني في صميمه توتر مستمر بين الحتمية والحرية، وسعي دائم لخلق الحرية على أشلاء الضرورة ، فليست الحرية إرادة متعسفة تقول للشيء كن فيكون، وإنما هي نشاط مستمر تسعى من ورائه الإرادة إلى تحرير ذاتها"(41)، وهذا ما يكشف حالة التمايز والاختلاف في الرؤى والتوجهات الإيديولوجية، فضلاً عن التصورات

الثقافية التي تنطوي عليها كل ثقافة للتمييز بين أنواع التوتر المتعددة، وطبيعة الصراع الثقافي داخل الثقافة القومية الواحدة(42)، الأمر الذي يفرض على السلطة أن تحقق العدل المطلق المتضمن لمبادئ الحرية والعدالة والمساواة التي نادى بها دعاة التنوير ورواد النهضة العربية ؛ لأن السلطة لم تستمد قوتها إلا من الأمة لأجل قمع أهل الشر، وصيانة حقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للمجموع والنظر إلى الصالح العام وملازمة اليقظة والحذر على دوام الأمن واستمرار العدالة المطلقة(43)، هذه هي الحياة المدنية التي أراد المراس أن يتمتع بها أبناء مجتمعه.

وهذا ما حاول جاهداً أن يحققه من خلال فاعلية الخيال الإليجوري الخلاق الذي أطلق له العنان في روايته غابة الحق، التي هدفت وعلى حد قول عبدالله إبراهيم "لفكرة التغيير الاجتماعي... فهي رواية رمزية موضوعها الاجتماع الإنساني"(44)، ويقصد بالتغيير الاجتماعي هو الخروج من العبودية ونبد كل صور التخلف والانحطاط، والدخول في المدنية التي يؤكد عليها منادياً بترسيخ مبادئها المدنية المستمدة من التنوير، مما يدل على أهميتها الكبيرة ومكانتها الخاصة عنده ؛ لما يعلق على مفهومها على وفق رؤيته وفهمه لجوهرها وما يمكن أن يتنج عنها، فالمدنية في نظره هي ما يقود الإنسان إلى كمال أوضاعه الطبيعية والخلقية(45) وتحريره من الجهل والعبودية، وهكذا يتجلى البعد الاجتماعي لعصر النهضة عبر الخيال الأدبي لرواده ودعاة تنويره وهذا ما تمثل خير تمثيل في رواية غابة الحق لفرنسيس فتح الله المراس.

الخاتمة :

- إنَّ البعد الاجتماعي قد تجلّى بأبهى صوره الخيالية ذات البعد الإليجوري الذي وجده فرنسيس المراس منطقة خصبة لغرس أفكاره التنويرية ونشر مبادئ التمدن والمدنية عبر

الرؤيا(الحلم)، الذي يتميز بإمكاناته الكبيرة وقدرته الرمزية الفائقة على تصوير الواقع خيالياً، الأمر الذي دفع أكثر النقاد إلى "عد المنامات إرثاً حضارياً كونها تجسد لنا الواقع الاجتماعي منذ بدأ الخليقة إلى يومنا"(46)، ولهذا فقد تمكن المراه من إيصال أفكاره بما تتضمنه من نقد اجتماعي موجه للسلطة ورموزها، فكان يبت أفكاره وينشر مبادئه إجمالاً، ولكن بطرائق وأساليب رمزية خالصة.

- تمثل غابة الحق بناءً على وفق هذا التصور جزءاً لا يتجزأ من البنية الفكرية للمجتمع عامة، والمراه خاصة، ولا سيما أن المجتمعات الإنسانية تعبر عن طريق أدبائها من الكتاب والمفكرين نحو ما تتطلع إليه، وما من شأنه أن يخدم مصالحها الخاصة.

- إن رواية غابة الحق ما هي إلا شكلاً من أشكال الوعي المدني الذي كان يتمتع به المراه حينئذ، فضلاً عن أن هذا الوعي لا بد أن تكون له تمثلاته الثقافية في نتاجه الأدبي، وقد تجلّى عبر أفكاره التنويرية إلى جانب ارتباطه برؤيته للتاريخ وتصورات عنه التي كان من نتائجها غابة الحق.

- لقد تمكن المراه من تصوير الواقع الاجتماعي الذي كان يعاني منه المجتمع في ظل الأنظمة الاستبدادية الفاسدة والمفسدة، تصويراً رمزياً محققاً بذلك أهدافه التنويرية، ومرسحاً في الوقت نفسه مبادئ التنوير الاجتماعية عبر أفكاره اللبرالية المتنورة التي أخذ يدعو من خلالها إلى التمدن والمدنية بكل ما تنطوي عليه من حرية وعدالة ومساواة اجتماعية.

الهوامش :

1- النهضة المجهضة - مشكلات الفكر العربي في ق20 - نظرة تكوينية نقدية، سلامة كيله : 65.

(*) انطوت الرؤى الصاعدة منذ بداية مطلع عصر النهضة العربية على نزعات عقلانية متعددة وأساسية. وهي في حقيقتها تمثل نوعاً من الوعي المدني المحدث الذي يجسّد وعود المجتمعات وتطلعاتها المدنية نحو الحرية والعدالة والمساواة، مستجيباً في الوقت نفسه إلى معاني العقد الاجتماعي الذي تتأسس على وفقه الدولة المدنية. وما أقصد إليه "بالوعي المدني" في هذا السياق هو الفكر المحدث، أو الأفكار المتحولة بوساطة عمليات التحديث التي تفضي إلى التغيير المدني عبر العلاقات الثقافية وآليات إنتاج الأنظمة المعرفية في المجتمعات القابلة للتحديث من خلال علاقات التأثير والتأثير التي تؤدي إلى تخلق رؤى مدنية واعدة لعالم صاعد ترمز إليه المدينة المتحولة وتجسّد ملامحه التنويرية. ط: الرواية والاستنارة، جابر عصفور: 23.

2- الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني: 1798-1939: 296.

3- ط: تمثيلات الآخر - صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم: 34، و ط: الرواية والاستنارة: 269.

4- ط: السرد العربي القديم - الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، ضياء خميس (أطروحة دكتوراه): 12.

5- حركة التنوير العربية في ق19 ع - حلقة حلب، جمال باروت: 206.

6- ط: الحداثة المتقهقرة، فيصل دراج: 7.

7- من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية، حميد لحمداني: 60.

8- ط: الفكر العربي في عصر النهضة: 296، وللمزيد، ط: تجليات الفضاء التنويري في أدب

فرنسيس فتح المارش، خليل الموسى، مجلة جامعة دمشق، مج 26، ع 3 و 4، 2010 م: 19 وما بعدها.

9- غابة الحق: 12-20.

10- م. ن: 47.

11- ط: اغتيال العقل، برهان غليون: 90، 297.

12- مفهوم الدولة، عبدالله العروي: 17.

13- م. ن: 18.

14- من النهضة إلى الإصلاح، عبدالإله بلقزيز: 154.

15- غابة الحق: 50.

16- ط: الرواية والاستنارة: 279.

17- م. ن: 273.

18- ينظر: غابة الحق: 47.

19- حركة التنوير العربية في ق19 ع - حلقة حلب: 206.

- 20- غابة الحق : 59.
- 21- الرواية وتأويل التاريخ : فيصل دراج : 60.
- 22- غابة الحق : 55-57.
- 23- م . ن . : 54.
- 24- ظ : النهضة المجهضة – مشكلات الفكر العربي في ق20- نظرة تكوينية نقدية : 75.
- 25- غابة الحق : 54.
- 26- السردية العربية الحديثة، عبدالله إبراهيم: 1/ 236.
- 27- غابة الحق : 21، 27، 77.
- 28- ظ : السردية العربية الحديثة: 1/ 236-237، و ظ : الرواية والاستنارة : 272.
- 29- النهضة المجهضة – مشكلات الفكر العربي في ق20 – نظرة تكوينية نقدية : 28.
- 30- الرواية والاستنارة : 282.
- 31- ظ : غابة الحق : 12، 20، 47.
- 32- ظ : شعرية القراءة والتأويل، فتحي بوخالفة : 134، و ظ : من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية : 11.
- 33- ظ : الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم، حنا الفاخوري: 1/ 26، و ظ : الكلام والخبر (مقدمة في للسرد العربي)، سعيد يقطين : 199-200.
- 34- مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم: 30، و جماليات الرواية العربية – أبنية السرد ورؤية العالم، يسرى عبدالله: 11.
- 35- ظ : جماليات الرواية العربية – أبنية السرد ورؤية العالم : 11.
- 36- غابة الحق : 8.
- 37- غابة الحق : 82-83.
- 38- ظ : م . ن . و ص، ن .
- 39- غابة الحق : 83-84.
- 40- مفهوم الحرية، عبدالله العروي : 108.
- 41- مشكلة الحرية : 271.
- 42- ظ : اغتيال العقل : 90.
- 43- ظ : العدالة والحرية في فجر النهضة العربي الحديثة، عزت قرني : 219.
- 44- السردية العربية: 1/ 235.

- 45- ظ : الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 : 296.
46- المنامات في الموروث الحكائي العربي –دراسة في النص الثقافي والبنية السردية : 27، 77.

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- اغتيال العقل، برهان غليون : 90، 297.
- 2- الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم، حنا الفاخوري : 1/ 26.
- 3- الحداثة المتقهقرة، فصيل دراج : 7.
- 4- الرواية والاستنارة، جابر عصفور : 269.
- 5- الرواية وتأويل التاريخ : فيصل دراج : 60.
- 6- السردية العربية الحديثة، عبدالله إبراهيم : 1/ 236.
- 7- العدالة والحرية في فجر النهضة العربي الحديثة، عزت قرني : 219.
- 8- الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني : 296.
- 9- الكلام والخبر (مقدمة في للسرد العربي)، سعيد يقطين : 199-200.
- 10- المنامات في الموروث الحكائي العربي –دراسة في النص الثقافي والبنية السردية : 27، 77.
- 11- النهضة المجهضة – مشكلات الفكر العربي في ق 20 نظرة تكوينية نقدية، سلامة كيل: 65.
- 12- تجليات الفضاء التنويري في أدب فرنسيس فتح المارش، خليل الموسى، مجلة جامعة
- 13 دمشق، مج 26، ع 3 و 4، 2010م : 19 وما بعدها.
- 14- تمثيلات الآخر – صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم : 34.
- 15- جماليات الرواية العربية – أبنية السرد ورؤية العالم، يسرى عبدالله: 11.
- 16- حركة التنوير العربية في ق 19ع – حلقة حلب، جمال باروت : 206.
- 17- شعرية القراءة والتأويل، فتحي بوخالفة : 134،
- 18- غابة الحق : 12- 20.

- 19- مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم :30
- 20- مفهوم الحرية، عبدالله العروي : 108
- 21- مفهوم الدولة، عبدالله العروي : 17
- 22- من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية، حميد لحمداني : 60
- 23- من النهضة إلى الإصلاح، عبدالإله بلقزيز: 154.
- 24- السرد العربي القديم – الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، ضياء خميس (أطروحة دكتوراه):12.